كشفنا حالهم بعد كشف وايضاحا عقيب ايضاح وكما يجب على البليغ في مظان الاجمال والايجاز
ان يجمل ويوجز فكذلك الواجب عليه في موارد التفصيل والاشباع ان يفصل ويشبع انشد
الجاحظ يرمون بالخطب الطوال وتارة وحي الملاحظ خيفة الرقباء ومما ثني من التمثيل في التنزيل
قوله وما يستوي الاعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الاحياء
ولا الاموات والا ترى الى ذي الرمة كيف صنع في قصيدته اذاك ام عيشي بالوشي اكرعه اذاك
ام خاضب بالسي مرتعه فان قلت قد شبه المنافق في التمثيل الاول بالمستوقد نارا واظهاره
الايمان بالاضاءة وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار فماذا شبه في التمثيل الثاني بالصيب لان القلوب يحيى به
حيوة الارض وبالظلمات وبالرعد وبالبرق وبالصواعق قلت لقائل ان يقول شبه دين الاسلام بالصيب
لان القلوب تحيى به حيوة الارض بالمطر وما يتعلق به من شبه الكفار بالظلمات وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد
والبرق وما يصيب الكفرة من الافزاع والبلايا والفتن من جهة اهل الاسلام بالصواعق او كمثل ذوي صيب
والمراد كمثل قوم اخذتهم السماء على هذه الصفة فلقوا منها ما لقوا فان قلت هذا تشبيه اشياء باشياء فاين
ذكر المشبهات وهلا صرح به كما في قوله وما يستوي الاعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء
وفي قول امرء القيس كان قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالي قلت كما جاء ذلك
صريحا فقد جاء مطويا ذكره على سنن الاستعارة كقوله تع وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ
شرابه وهذا ملح اجاج وضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل والصحيح الذي عليه
علماء البيان لا يتخطونه ان التمثيلين جميعا من جملة التمثيلات المركبة دون المفرقة لا يتكلف لواحد واحد
شيء يقدر شبهه به وهو القول الفحل والمذهب الجزل بيانه ان العرب تاخذ اشياء فرادى معزولا
بعضها من بعض لم ياخذ هذا حجزة ذاك فتشبهها بنظايرها كما فعل امرء القيس وجاء في القرآن وتشبه كيفية
حاصلة من مجموع اشياء قد تضامت وتلاصقت حتى عادت شيئا واحدا باخرى مثلها كقوله تع مثل
الذين حملوا التورية الاية الغرض تشبيه حال اليهود في جهلها بما معها من التورية وآياتها الباهرة
بحال الحمار في جهله بما يحمل من اسفار الحكمة وتساوي الحالتين عنده من حمل اسفار الحكمة وحمل ما سواها
من الاوقار لا يشعر من ذلك الا بما يمر بدفتيه من الكد والتعب وكقوله واضرب لهم مثل الحيوة
الدنيا كماء انزلناه من السماء المراد قلة بقاء زهرة الدنيا كقلة بقاء الخضر فاما ان يراد تشبيه
الافراد او بالافراد غير منوط بعضها ببعض ومصيرة شيئا واحدا فلا فكذلك لما وصف وقوع

21

المنافقين في ضلالتهم وما خبطوا فيه من الحيرة والدهشة شبهت حيرتهم وشدة الامر عليهم بما يكابد
من طفئت ناره بعد ايقادها في ظلمة الليل وكذلك من اخذته السماء في الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف
من الصواعق فان قلت الذي كنت تقدره في المفرق من التشبيه من حذف المضاف وهو قولك او كمثل
ذوي صيب هل تقدر مثله في المركب منه قلت لولا طلب الراجع في قوله يجعلون اصابعهم في آذانهم
ما يرجع اليه لكنت مستغنيا عن تقديره لاني اراعي الكيفية المنتزعة من مجموع الكلام فلا علي
اولي حرف التشبيه مفرد يتاتى التشبيه به او لم يله الا ترى الى قوله انما مثل الحيوة الدنيا
الاية كيف ولي الماء الكاف وليس الغرض تشبيه الدنيا بالماء ولا بمفرد آخر يتمحل لتقديره ومما هو
بين في هذا قول لبيد وما الناس الا كالديار واهلها بها يوم حلوها وغدوا بلاقع لم يشبه الناس
بالديار وانما شبه وجودهم في الدنيا وسرعة زوالهم وفناءهم بحلول اهل الديار فيها ووشك
نهوضهم عنها وتركها خلاء خاوية فان قلت اي التمثيلين ابلغ قلت الثاني لانه ادل على فرط الحيرة
وشدة الامر وفظاعته ولذلك اخروهم يتدرجون في نحو هذا من الاهون الى الاغلظ فان قلت لم عطف
احد التمثيلين على الآخر بحرف الشك قلت او في اصلها لتساوي شيئين فصاعدا في الشك ثم اتسع
فيها فاستعيرت للتساوي في غير الشك وذلك قولك جالس الحسن او ابن سيرين تريد انهما سيان
في استصواب ان تجالس ومنه قوله تع ولا تطع منهم آثما او كفورا اي الآثم والكفور متساويان
في وجوب عصيانهما فكذلك قوله او كصيب معناه ان كيفية قصة المنافقين مشبهة بكيفيتي
هاتين القصتين وان القصتين سواء في استقلال كل واحدة منهما بوجه التمثيل فبايتهما مثلتها
فانت مصيب وان مثلتها بهما جميعا فكذلك والصيب المطر الذي يصوب اي ينزل ويقع
ويقال للسحاب صيب ايضا قال الشماخ واسحم دان صادق الرعد صيب وتنكير صيب
لانه اريد نوع من المطر شديد هائل كما نكرت النار في التمثيل الاول وقرئ كصائب والصيب
ابلغ والسماء هذه المظلة وعن الحسن انها موج مكفوف فان قلت قوله من السماء ما الفائدة
في ذكره والصيب لا يكون الا من السماء قلت الفائدة فيه انه جاء بالسماء معرفة فنفى ان يتصوب
من سماء اي من افق واحد من بين سائر الآفاق لان كل افق من آفاقها سماء كما ان كل طبقة
من الطباق سماء في قوله واوحى في كل سماء امرها والدليل عليه قوله ومن بعد ارض بيننا وسماء

Copyright © King Saud University